العرب
الإثنين 2019/11/11
السنة 42 العدد 11525

عراق ما بعد تشرين ليس ما قبله

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

وأخيرا حصلت الجريمة الموعودة بأمر الباب العالي في طهران، وبرصاص إيراني خالص، وتم إعلان الحرب الحقيقية ضد جماهير العراق المسالمة التي لم تطلب غير العدالة والخبز والكرامة ورحيل الغزاة.

ورغم نفي المرجعية ضلوعها في الاتفاق، الذي فرضه قاسم سليماني على الحكومة والميليشيات، إلا أنها بسكوتها عن إراقة دماء شباب الانتفاضة في ساحة التحرير والخلاني في بغداد وفي البصرة والناصرية والنجف وكربلاء، وبيانها "التعميمي" الذي أذاعته الجمعة وضعت نفسها في موضع الشك والريبة لدى الملايين من أبناء طائفتها، بعد أن سقطت هيبتها لدى ملايين آخرين منذ سنوات.

فقد عودنا المرجع السيستاني على ضبابية بياناته كلها، وعلى عدم دخوله في حرج التشخيص والتوضيح ووضع النقاط على الحروف وتسمية الأشياء بأسمائها.

فرغم أنه، في خطاب الجمعة الأخير، حمَّل قوات الحكومة مسؤولية "تأمين الاحتجاجات والحفاظ على السلمية" وحثها على "الاستجابة لمطالب المحتجين في أسرع وقت"، إلا أن ملثمي قاسم سليماني وفالح الفياض وأبومهدي المهندس وقيس الخزعلي وعادل عبدالمهدي واصلوا حملات القتل العمد والاعتقال وملاحقة النشطاء وكأنَّ شيئا لم يكن.

لا يمكن مقارنة تدخل أي دولة بما فعله الإيرانيون بالشعب العراقي، وخاصة بأبناء الطائفة التي زعموا أن احتلالهم جاء لرفع المظلومية عنها

واضح أن سبب هذا التجاهل والاستخفاف من قبل أولاد المرجعية "المدللين" هو أن السيستاني لم يصدر فتوى صريحة بتحريم قتل المتظاهرين، ولم يصدر أمرا حازما حاسما باستجابة الحكومة لمطالبهم في مهلة محددة، ولم يعتبر من لا يلتزم به خارجا على القانون، ومخالفا لشرعة الله ورسوله وآله أجمعين.

ثم إنه، وهذا هو الأهم، تحدث في خطابه ذاك عن التدخل الخارجي، ولكن بنفس الصيغ العمومية التي لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، قائلا "إن هناك أطرافا وجهات خارجية وداخلية كان لها دور في ما أصاب العراق من أذى وقمع وتنكيل، وهي قد تسعى اليوم لاستغلال الحركة الجماهيرية الجارية لتنفيذ مآربها".

وهنا لا أحد عرف المقصود. وفي هذا الباب، خصوصا، لا مناص من أن نعترف بأن الانتفاضة الوطنية التي أسمتها المرجعية بـ"الحركة الجماهيرية الجارية" ربما تجعل بعض الحكومات وأجهزة المخابرات العربية والأجنبية، تحاول أن تتدخل أو توسع تدخلها الحاصل فعلا منذ أيام مجلس الحكم سيء الصيت.

ولكن بناءً على عظمة الوعي الوطني الشعبي الحاصل اليوم وعفوية الانتفاضة وصلابة أبنائها وبناتها وشيوخها، يصعب أن تجد تلك الحكومات والمخابرات مساحات واسعة كافية لشراء ضمائر جديدة غير تلك التي اشترتها منذ زمن طويل، وهي الشراذم العميلة ذاتها المعروفة والمفضوحة، والتي يعرف القريب والبعيد من العراقيين تفاهة سنّتها وكُردها، وجبنَهم وانتهازيتهم، وهم يتسكعون منذ العام 2003 وحتى اليوم، على أعتاب قاسم سليماني، ويتمسحون بأذيال هادي العامري ونوري المالكي وفالح الفياض، حفاظا على مناصبهم ورواتبهم ومكاسبهم، وهم أذلة.

ولا يخفى على المرجعية ولا على غيرها أن أقمش حكومة وأغلظ مخابرات أجنبية لا يمكن أن تشتريا هذا الطوفان الشعبي العظيم من المنتفضين الممتدة ساحاتُ ثورتهم من البصرة إلى بغداد، مرورا بالناصرية والديوانية والعمارة والحلة والنجف وكربلاء، لتتمكن من حرف مسيرة الانتفاضة، وتطويعها لأهدافها ومخططاتها، خصوصا وأن الجماهير المنتفضة أدرجت جميع وكلاء الدول الخارجية المتدخلة في الشأن العراقي، شرقيها وغربيها، عربيها وأجنبيها، في قائمة المطلوب كنسهم من حياتها، كلهم لمة واحدة دون تمييز ولا تفريق.

وكان منتظرا ومتوقعا من المرجع، وهو صاحب المقام الرفيع، ومؤسس النظام الحالي والعارف بخفاياه وأسراره أكثر من أي جهة أخرى، أن يُشخص، بوضوح وصراحة وشجاعة، واقع التدخل الخارجي في العراق، وأن يعلن على الملأ أن الوجود الإيراني الاحتلالي هو سبب جميع أنواع "الأذى والقمع والتنكيل الحاصل"، وأنه حامي الفاسدين والمزورين والمختلسين في العراق، وناشر الفقر والعوز والمرض والجهل والفرقة والاقتتال بين أبناء الوطن الواحد، وأنه المُشعِل الأول والأخير لثورة تشرين. ولكنه لم يفعل.

ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، المقارنة بين تدخل أي دولة خارجية، مهما بالغنا في تقدير حجم تدخلها وقوة تأثيرها في مجرى الأحداث العراقية، وبين ما فعله ويفعله الإيرانيون بالشعب العراقي، كله، وخاصة بأبناء الطائفة التي زعموا بأن احتلالهم للعراق جاء لرفع المظلومية عنها، وهم كاذبون ومراوغون وخادعون.

هذا مع العلم بأنَّ تاريخ الشعب العراقي يقول إن الغزو، أي غزو أجنبي، كان مرفوضا من العراقيين، وكانت مقاومتُه بكل الوسائل مضرب المثل لشعوب عديدة أخرى تعلمت منه فنون الثورة على الغزو والاحتلال، وعلى الظلم والعدوان، أيا كان، وأيا كانت ديانته أو طائفته أو عرقه.

وقد خَلَّد تاريخ بلاد ما بين النهرين ملاحم بطولة وطنيين عراقيين كثيرين قادوا معارك تحريرها، ودافعوا عن ترابها واستقلالها وكرامتها، حتى النفس الأخير.

وثوار تشرين العراقيون اليوم ليسوا فئة صغيرة، ولا سكان قرية واحدة، ولا أهالي حارة في مدينة، ولا عمالا في مؤسسة ماء أو كهرباء أو إعاشة يطالبون بزيادة رواتب، بل هم ثورة شعبية حاشدة، صاخبة، صامدة، في طول البلاد وعرضها، لا يوهنها قتل ولا اعتقال ولا اغتصاب.

ويتوهم قاسم سليماني وعبيده العراقيون الأغبياء أن وأد انتفاضة تشرين سيكون النهاية. فقد أسقطت ثورة تشرين شرعيتهم جميعا، وصوتت ضد وجودهم وستخرج من جديد أقوى وأعم وستقتلع جذورهم، ولو بعد حين.

هل قاد السيستاني مرجعية النجف إلى أفولها؟

فاروق يوسف
كاتب عراقي

منذ اليوم الأول للاحتلال الأميركي للعراق وُضعت المرجعية الدينية في النجف في مكان هو ليس مكانها الطبيعي.

لقد ارتأى الأميركان أن تمارس المرجعية دورا يبدو كما لو أنه سياسي غير أنه في الواقع كان دورا خدميا يقع في خدمتهم.

كان ذلك التحول تمهيدا لتكريس الجانب الأبوي، الذي سيستفيد منه السياسيون العراقيون في تمرير عمليات فسادهم معتمدين على مباركة المرجعية الدينية لهم، باعتبار أن سلطتها تقع فوق السلطات.

كان هناك نوع من الخديعة المتبادلة، التي تم التفاهم عليها بشكل غير مباشر.

فحين استفاد المحتل الأميركي من فتاوى المرجعية الخاصة بتهدئة الشارع الشيعي وبث روح الأمل فيه، فإن المرجعية نفسها وسعت في الوقت نفسه من نفوذها، الذي جلب لها إيرادات مالية ما كان من الممكن أن تحصل عليها لو أنها اكتفت بدورها الديني.

ذلك ما حدث من خلال علاقة المرجعية فيما بعد بالطبقة السياسية الحاكمة. ففي مقابل تزكية المرجعية للسياسيين الفاسدين في مناصبهم، فإن المرجعية كانت تنال حصتها من ثروات العراق المنهوبة، من غير أن تتعرض لأي نوع من المساءلة، ذلك لأنها وضعت فوق الشبهات.

لقد جرت الأمور كما لو أن هناك اتفاقا مسبقا، تم إبرامه ما بين سلطة دينية، صارت تستغل تأثيرها على فئات واسعة من الشعب، وبين طبقة سياسية صارت تمارس فسادها بحرية مستفيدة من السحر الذي تمارسه المرجعية على العامة. ذلك الاتفاق هو في حقيقته اتفاق مصالح وضعه الأميركان على الطريق التي لن يتراجع عنها كلا الطرفين.

لذلك فإن المرجعية التي تتمتع بثرائها الفاحش غالبا ما تتدخل حين تشعر أن هناك ما يهدد سلطة الطبقة السياسية. وهو أمر صار مفضوحا بالنسبة إلى عامة الشعب، الذي لا يزال ينظر باحترام إلى المرجعية وإن بدا الكثيرون وبالأخص الشباب يُظهرون تململهم من الدور المريب الذي تلعبه المرجعية.

تاريخيا يمكن القول إن المرجعية كانت مسؤولة عن تثبيت أسس النظام الطائفي الذي كان واجهة للفساد الذي شهده العراق في سنوات ما بعد الاحتلال. لذلك فإنها لم تعلن انحيازها للشعب الذي يرفض ذلك النظام.

وإذا ما كان الشعب العراقي في أوقات سابقة ينتظر كلمة من المرجعية، فإن تلك الكلمة ما عادت ترضي أحدا منه بعد أن خرج الشباب إلى الشوارع محتجين من غير أن تتمكن المرجعية من السيطرة على حراكهم.

لقد تغيرت الكثير من الموازين.

فما من أحد من السياسيين السادرين في تبعيتهم إلى إيران صار يلتفت إلى مرجعية النجف. ذلك لأن معظمهم يرون في خامنئي مرجعا وحيدا لهم. وإذا ما كانت مرجعية النجف لا تزال مصرة على الدفاع عن النظام السياسي القائم فلأنه يمثل الحصانة التي تحمي فسادها وتتستر عليه.

لذلك يمكن القول إن المرجعية اليوم ليست في موضع محترم بالنسبة إلى الشعب والطبقة السياسية.

فلقد استهلكت سياسيا ولم يعد لها ذلك التأثير الذي صنعه الأميركان واعتمدوا عليه.

لقد أوهم الأميركان الجميع أن السيستاني هو رجل الحل. خديعة اكتشف الشعب العراقي أنه وقع في حبائلها زمنا طويلا. فالسيستاني إن لم يكن فاسدا كما أوحى بذلك وزير الدفاع الأميركي السابق دونالد رامسفيلد فإنه واجهة لمؤسسة فساد يديرها ابنه محمد رضا. وهو ما صار العراقيون على اطلاع عليه.

ما حدث أن المرجعية الشيعية في النجف خسرت مكانتها الدينية حين أقحمت نفسها في السياسة بطريقة غير نزيهة، وهو ما جعل الشعب العراقي يفقد الثقة بها. ذلك ما فتح العيون على فسادها القديم والجديد. كما أنها سمحت عن طريق تلك الفضيحة للمرجعية الإيرانية في قم بأن تتقدم عليها.

هل يمكن القول إن علي السيستاني تنازل عن شرعية النجف في قيادة العالم الشيعي من أجل أن تتمكن إيران من تنفيذ مشروعها؟

ذلك أمر محتمل في ذلك العالم الذي يلفه الغموض.

انتفاضات الشعوب تفضح المشروع الصفوي الجديد

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

حتى وقت قريب كان يمكن للبعض أن يقتنع ببعض مبررات الدفاع عن مواقف حزب الله اللبناني من الملفات الإقليمية. اليوم لم يعد ذلك ممكنا، فالصورة اتضحت تماما. كل مواقف الميليشيا التي تحاول أن تتخفى وراء بنية حزبية، تشير إلى أنها مجرد ذراع عسكرية وعقائدية مرتبطة بنظام الملالي في طهران، ومواقفها وقراراتها تنبع من مصالح الأمن القومي الإيراني لا غير.

نحن أمام مشروع يحاول منذ العام 1979 تشكيل حضوره السياسي والاجتماعي والعسكري والاقتصادي عبر مشروع توسعي في المنطقة العربية. هو في الأصل عنصري فارسي، لكنه يستفيد من طائفيته في كسب تعاطف بعض الشيعة العرب، وخاصة في لبنان التي كان لعلمائها الدور الأكبر تاريخيا في نشر التشيع الاثني عشري في إيران بعد قيام الدولة الصفوية في أوائل القرن السادس عشر.

كانت إيران قبل ذلك تدين بمذهب السنة ولم يكن فيها سوى أربع مدن شيعية (آوه، قاشان، سبزوار، قم). وعندما تم تتويجه ملكا على إيران في العام 1502 أعلن إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي مذهبا رسميا للدولة، وفرضه بقوة السلاح وسفك دماء مئات الآلاف من السكان، حتى أن المؤرخ السنّي قطب الدين النهروالي، أكد أن الصفوي "قتل خلقا كثيرا لا يحصون عن ألف ألف نفس" أي أكثر من مليون شخص.

لجأ إسماعيل الصفوي بعد ذلك إلى علماء جبل عامل في لبنان لنشر التشيع الاثني عشري في بلاده. يقول الباحث حسن غريب "رأى مؤسس الدولة الصفوية أنه من العسير عليه أن يوفر للناس حقيقة المعتقد وترسيخ مبادئه في نفوسهم، ووجد أيضاً أن الكتب غير متوفرة، فعمد إلى ملء الفراغ من خلال استحضار علماء الشيعة من جبل عامل... وأصبحت استمالة علماء جبل عامل للتوجه إلى إيران من السياسات الأساسية للحكومة هناك، وهكذا استمرت هجرة العلماء العامليين منذ ذلك الحين".

بمعنى آخر، يمكن القول إن ترسيخ المذهب في إيران كان وراءه علماء لبنانيون، نالوا منزلة كبيرة لدى الدولة الصفوية التي أغدقت عليهم بالعطايا والهدايا على شكل أملاك وأموال نقدية وعينية، وأصبحوا جزءا من بنيتها العقائدية ومرجعيتها الروحية والسياسية.

إشارة كهذه تجعلنا ندرك طبيعة العلاقة الحالية بين نظام الملالي، الذي يعتبر نفسه الوريث الشرعي للصفوية، وحزب الله الذي يعتبر نفسه امتدادا لناشري الاثني عشرية في إيران، والذي لم يخف زعيمه حسن نصرالله ذات يومه أن هدفه هو أن يكون لبنان جزءا من دولة الولي الفقيه.

وتتضح الصورة أكثر عندما ننظر في الجهة المقابلة إلى التيارات الدينية السنية وميليشياتها في أكثر من بلد عربي، والتي ترتبط بتركيا الأردوغانية المتطلعة لاستعادة طموحاتها التوسعية مستحضرة بذلك إرثها العثماني، ما يؤكد أن الوطنية لا مكان لها في فكر الإسلام السياسي بشقيه الشيعي والسني.

المذهب هو الأساس في تحديد أولويات حزب الله وهو حصان طروادة في فقه المشروع الفارسي، الذي يسعى إلى بناء إمبراطورية صفوية جديدة

عندما اندلعت ثورات ما سمي بالربيع العربي في العام 2011، بادر حزب الله بدعم انتفاضات شعوب تونس ومصر وليبيا واليمن ضد أنظمتها، لكن موقفه تغيّر عندما اشتعلت انتفاضة سوريا. في تلك الحالة وقف مع النظام ضد الشعب، وكان واضحا في دعمه غير المحدود للحراك الطائفي الذي شهدته البحرين، كما كان مساندا أصيلا للانقلاب الحوثي ضد الشرعية في اليمن.

موقف حزب الله من تلك الأحداث لم يكن يهتم بالشعوب بقدر ما كان مرتبطا بحسابات ومصالح الطائفة أولا، وهذا ما تبيّن مؤخرا من قراءته للأحداث في لبنان والعراق، حيث كان موقفه أبعد ما يكون عن الوطنية، وأقرب ما يكون للنظرة الطائفية الضيقة في علاقتها بالمشروع الإيراني في نسخته الصفوية الجديدة.

يتضح اليوم جليًا أن المذهب هو الأساس في تحديد أولويات حزب الله، وهو حصان طروادة في فقه المشروع الفارسي، الأمر الذي أدركته الشعوب، التي قررت أن تنتفض ضد المشروعين. ما يحدث في العراق ولبنان أثبت أن الشيعة أنفسهم لم يعد لهم أي اقتناع بالطائفية السياسية، التي تدوس على رقابهم، لذلك نعتهم نصرالله بشيعة السفارات، ونعتهم الفرس بشيعة الإنكليز.

لقد أساء حزب الله وإيران لقضايا الشعوب، وفقدا كل صدقية كانا يدعيان التعبير عنها، فلا هما مع الحرية والانعتاق، ولا مع الديمقراطية وحقوق الإنسان، وإنما هما مع مشروعهما التوسعي العدواني، الذي يستهدف المنطقة ويسعى إلى بناء إمبراطورية صفوية جديدة بنفس آليات إسماعيل الصفوي قبل 500 عام.